القيم الأخلاقية في حضارات العصر الوسيط

إعداد

مروه مصطفى هاشم محمد

باحثة ماجستير

إشراف

الأستاذ الدكتور / عصمت حسين نصار

أستاذ الفلسفة الإسلامية والفكر العربي

المستخلص

يعد العصر الوسيط هو مهد الحضارات الحديثة والمعاصرة لظهور الأديان السماوية به خاصة المسيحية والإسلام، فديانات العالم الحديث أساسها العصر الوسيط واتفقوا جميعا على عبادة الإله الواحد المنزه عن عبادات الشرك وتصوراتها الإنسانية حول الآلهة ، فيمثل الاهتمام بالقيم والفضيلة قاسما مشتركا بين جميع الأديان السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام وأهم قيمها التي دعت لها (السلام- الحب- التعاون- المساواة- العدل- ... الخ)، حيث وضعوا لهم أحكام شرعية ترشدهم إلى الخير ، وكانت القيم الأخلاقية فيهم جميعا مرتبطة بالدين ولكن بفعل الأفكار الوثنية وأعمال العقل اتجهت الأخلاق إلى وجهات نظر ما بين الدينية والعقلية ، وتشعبت هذه الأخلاق بعد العصر الوسيط في عهد الحداثة لكثير من النظريات الطبيعية والاجتماعية والمادية والمثالية والعقلية والحسية.

فالأديان السماوية كان معيارها جميعا الأخلاق،فشرائع كل ديانة تقوم على عدة قيم إذا التزم بها المؤمن سلك إلى طريق المغفرة والسعادة الأبدية، ولكن العقول البدائية وأثرها على المجتمعات وحب السلطة والقوة جعل الكثير من الجبابرة يستخدمون الدين كأداة لتحقيق مكاسبهم المادية بالتملق والمحاباة .

الكلمات المفتاحية :-

- القيم /- الأخلاق /- المادية/- العقلية/- الحسية/- الدينية

It was considered that the medieval age is the cradle of modern and contemporary civilizations for the emergence of the divine religions, especially Christianity and Islam. The religions of the modern world are based on the middle ages and all agreed on the worship of the One God, which renounces the acts of polytheism and its human perceptions about the gods. The concern of values and virtue is a common denominator among all the heavenly religions such as Judaism, Christianity and Islam, and the most important values which called for them (peace - love - cooperation - equality - justice - ... etc.), where they put them the provisions of legitimacy to guide them to good, and the moral values of all of them linked to religion, but by the ideas of paganism and the work of mind, between the religious and the mental, these post-medieval morals were permeated in the era of modernity to many natural, social, physical, idealistic, mental and sensory theories. However, the primitive minds and their impact on societies and the love of power and power made many tyrants use religion as a tool to achieve their material gains by flattery and favoritism.

Key words

- Value- Moral- Physical- Mentality- Sensory- Religious

مشكلة الدراسة :-

نجد أن القيم الأخلاقية اختلف منظورها من مجتمع للاخر وتاثرت بكل مجالات المجتمع ، لهذا وجدنا لها مذاهب وصور متعدده بين طيات الفكر، فرغم نزول الديانات السماوية مكمله لبعضها ألا إن قيمها تحولت بفعل ظروف المجتمع فكل فرد اخذ قيم وافكار معينة وجعلها تتطابق مع مصلحته الفردية، فاليهودية والمسيحية والاسلام لم يسلموا من الفوضى الأخلاقية بفعل الذاتية والمروق في الدين والطمع السياسي وحب المال والقوة والسلطة والشهوة ، فجميعها أسباب أثرت على تطور القيم الأخلاقية وثباتها.

اهداف البحث:-

- تقديم دراسة متكاملة حول تطور القيم الأخلاقية في العصر الوسيط .

- الكشف عن مدى تأثير عوامل المجتمع بأخلاقيات الديانات السماوية.

- عرض نموذج فكري من كل ديانة ومعرفة مواطن تاثيره وتاثره بمجتمعه.

تساؤلات البحث :-

- ما هي القيم التي دعت لها الديانات السماوية في العصر الوسيط؟

- ما هي المجالات التي تناولت الأخلاق كمنهج لها؟

- هل اثر المجال السياسي والديني والبيئي والعلمي في منظومة القيم الأخلاقية؟

المنهج المتبع في البحث :-

لقد استخدمت عدة مناهج منها المنهج البنيوي في دراسة كل مجتمع على حده ودراسة احداثه وتحليلها، والمنهج المقارن للوقوف على مواطن التاثير والتأثر ونقاط القوة والضعف،والمنهج الفينومينولوجي بطرح نموذج فكري من كل مجتمع لمعرفة مدي اصاله نظريته الأخلاقية وجذورها، وأخيرا استخدمت المنهج النقدي في توضيح رأي الشخصي في الحكم على مدي خيريه كل مجتمع أو شروريته.

المقدمة :-

فالأخلاق هي الأساس الأول الذي تقوم عليه أي حضارة لضمان بقائها وصمودها طوال التاريخ، فإذا اختفت القيم يوما يزول الدفء المعنوي للإنسان الذي هو روح الحياة والوجود فتغادر الرحمة قلبه، ويضعف وجدانه وضميره عن أداء دوره، ولم يعد يعرف

حقيقة وجوده فضلا عن حقيقة نفسه، ويكبل بقيود مادية لا يعرف فكاكا منها ولا خلاصا،وارتبطت الفلسفة الخلقية في هذا العصر بالدين وتأثر كلا منهما بالأخر ، فكما أن الخير والشر موضوعان مهمان في فلسفة الدين فكذلك الدين والأخلاق، فالدين ليس الإيمان فحسب بل تدور حوله مجموعة من المفاهيم مثل الخير وحرية الإرادة ، المسؤولية والقيم والمثل العليا، فالدين لا يصلح بدون أعمال والواجبات الخلقية هي تلك الأعمال النابعة من العقل أو الشعور ، وهناك من رفض العلاقة بين الدين والأخلاق وأكد أسبقية الأخلاق على الدين فاختلفت الآراء وتعددت المذاهب حول هذا الأمر .

تأثرت هذه الديانات بأوضاع المجتمع من فترة لأخرى حيث خضعت القوة الدينية إلى القوة السياسية وحب المال والسلطة، فكان آباء الكنيسة هم المسيطرون على الدول الغربية والشرقية بالدين والتأويل الكنسي الذي اتبع أهوائهم فترسيخ القيم كانت ملقاة على عاتق الكنيسة، ولضمان الطاعة قاموا بالمغالاة في تصورهم للفضيلة والخلق الرفيع واعتبروا تنفيذها متوقف على الملائكة وليس البشر، فالعفة مثلا خلق إنساني نبيل فطرت عليه البشرية، لكن الكنيسة بالغت فيه فنشروا الرهبنة ،فتعاليمها

تقول " إذا نظرت عينك إلى معصية فأقلعها، فأنه خير لك أن تفقد عضوا من أعضائك من أن يلقي جسدك كله في النار" ،أيضا الديانة الإسلامية بدأ المغالاة فيها بعد عهد الخلفاء فظهرت فرق تطلب السلطة الدينية والسياسية واختلقت تعاليم جديدة ودمجتها بالإسلام لكسب أتباع لهم ،فجملة القول إن أخلاق العصور الوسطي تطبعت بالوضع الاجتماعي والسياسي رغم أن الدين كان هو المتحكم الأول ولكن قيم (الطمع- القوة- التسلط- الظلم- حب التملك- الخ) حولت الدين لمجرد أداة يصلوا بها إلى أهدافهم المادية وهذا ما سنعرضه في إيجاز.

أولا :- القيم الأخلاقية في الحضارة اليهودية :-

تضم التوراة مجموعة من النصوص والممارسات والمواقف اللاهوتية والوصايا الأخلاقية على المؤمنين الالتزام بها،حيث عاش اليهود كأمه منعزلة عن سائر الأمم تكره الاختلاط بغيرها، فرغم معاشرتهم للمصريين لم يختلطوا معهم، حتى جاءهم "موسي" عليه السلام وأخرجهم من مصر تخليصا لهم من ظلم فرعون، ولكن وجودهم بالصحراء جعلهم يتذمرون على الإله وينشئون عجلا خوار يقدمون له العطايا لجلب النفع لهم، تأثرا بالعبادات الوثنية لدي الفراعنة فسخط عليهم الرب وحكم عليهم بالتيه،(1) فقيل بالكتاب المقدس " وان كنتم لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف، فأنا اسلك معكم بالخلاف ساخطا،وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم،

وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها، وأذريكم بين الأمم وأجرد ورائكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة".(2)

تبين أن اليهود منذ نشأتهم لم يكونوا ذو أصحاب مكارم أخلاق أو يلتزموا بقيم أخلاقية معينة، فعبر تاريخهم الدموي القاسي ظهر العديد من القيم السلبية التي كانت سببا في كره الشعوب لهم واضطهادهم من جميع الديانات، فظهرت لديهم قيم (المكر- القسوة- التذمر- الاعتراض- الظلم- التأمر- القتل- السرقة- العنف- الكره- الغرور- التملق... الخ)، لهذا لم تقم لهم دولة، كما أصيب اليهود بالغرور والتكبر في الأرض لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار الذي اختصهم الرب بعنايته عن باقي البشر فهم مجرد عبيد خلقوا لخدمة اليهود، ومع الحرية التي تمتع بها اليهود في ظل الإسلام انتشر الحلم الصهيوني بإنشاء دولة صهيونية تسيطر بها اليهود على العالم وبالفعل مع العصر الحديث نجحوا في انتشار سلطتهم على العالم ،فلم يقتصر اليهود سوء أخلاقهم على أنفسهم بل نظموا المؤسسات لنشر الرذائل بين الناس فهم جناة على الأخلاق، فاليهود لا يؤمنون إلا بالمادة ولا قيمة للمعنويات عندهم، ولا وزن للأخلاق ولا نصيب للروح ولا مكان للمبادئ ولا محل للصدق ولا وجود للأمانة فهذه أمور لا يعرفها اليهود، فهذا الإيمان بالماديات يهدم كل مقومات الأخلاق الإنسانية والاجتماعية والدينية لان جزء كبير من الدين قائم على ما وراء المادة والغيبيات ومنها اليوم الأخر الذي لا يؤمن به اليهود ولم يذكر في كتابهم المقدس فالمادية هي غايتهم القصوى لتحقيق مصالحهم الشخصية وكسب المنافع، (3) الصهيونية هي حركة سياسية عنصرية مستحدثة هدفها إقامة دولة لليهود في فلسطين وحكم العالم من خلالها واشتقت هذه الكلمة من جبل صهيون بالقدس، فهذا الاسم يرمز إلى مملكة داود وإعادة تشيد الهيكل المزعوم ولم يظهر هذا الاسم إلا في القرن التاسع عشر الميلادي وشعارهم لتبرير أخذهم الأرض المقدسة "ارض بلا شعب لشعب بلا ارض".(4)

ببداية ظهور المسيحية وانتشارها في كل أنحاء العالم واعتناق الرومان لها المسيطرين على العالم في ذلك الفترة قاموا باضطهاد اليهود الذين يكيدون للمسيح مما أثار غضب اليهود وقاموا بصلب المسيح وقتل أتباعه، فاشتعل الرومان غضبا وقاموا بقتل أعداد كبيرة من اليهود ومنعوا مراسم دينهم وطقوسهم وهدموا معابدهم واسروا نسائهم وقتلوا أطفالهم وشتتوا حول العالم، وفي ذلك الوقت ولفترة طويلة لم يقم لليهود دولة ولا دين موحد.(5) فأصيبت اليهودية بالضمور خلال القرون الوسطي، أما في القرن السادس الميلادي تم تدوين التلمود وانتشر اليهود بكل بلاد العالم ،وظهرت اليهودية وسلطة الحاخامية التي انتشرت حتى القرن التاسع عشر الميلادي، فبهم اكتملت الشريعة الشفوية "التلمود" التي اعتمد عليها اليهود في العصور الحديثة والمعاصرة، فلقد عرف اليهودي

المعاصر بأوصافه الخاصة القائمة على حب الذات والتعصب ومحاولة فرض السياسة على العالم كله معتمدا في مسلكه على تعاليم اليهود الأوائل الذين تركوا لهم كتبا تحدد لهم المنهج الواجب الأتباع، يقول عباس العقاد " إن أصبعنا من الأصابع اليهودية الكامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها المجتمع الإنساني في جميع الأزمان، فاليهودي "كارل ماركس" وراء الشيوعية التي تهدم الأخلاق والأديان، واليهودي "دور كايم" وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل أثارها في تطور الآداب والفضائل، واليهودي "جان بول سارتر" وراء الوجودية التي نشأت معززة لكرامة الفرد مجنحا بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة". (6)

لم يتمتع فلاسفة اليهود بحرية الفكر إلا في عهد المسلمين وكانت فلسفتهم متأثرة بالمذاهب اليونانية ،فلم ينشغلوا بتجديد النشاط الديني والخلقي لدي شعوبهم بل اهتموا بقضايا الوجود والمكان والزمان فلم يظهر لديهم فيلسوف صاحب نظرية أخلاقية، ومن أهم فلاسفتهم "سليمان بن جبرول" (1020– 1070م) اصطبغت فلسفته بالأفلاطونية الحديثة وقال بكتابه "جوهر الحياة" بالحلول وتعدد الصور والهيولي في الكائنات الخاصة، كما وجد "موسي بن ميمون" (1135– 1204م) ولقد اعتنق الإسلام ظاهريا خوفا من اضطهاد المسلمين ، ولكنه درس علم اللاهوت اليهودي في كتابه "دلالة الحائرين" رفض فيه التفسير الحرفي للنصوص المقدسة، " رأي إن الإنسان يريد الخير والشر بحرية كاملة وهو إنما يعمل الخير لمنفعته ولان ذلك أيضا يرضي الله، أما مسالة البعث فموكولة للإيمان الديني لان العقل لا يستطيع إنكاره أو إثباته، فيرجع له الفضل في تحرير عقول اليهود من التمسك بترجمة التوراة والتلمود ترجمة حرفية"(7)

يتراءى لي أن ما يمكن قوله عن المجتمع اليهودي انه لم يدعم أي قيمة أو معتقد أخلاقي ولم يبثوا داخل أبنائهم سوي الكرة والغرور لاعتبارهم شعب الله المختار أسياد الأرض وكل ما عليها ملكا لهم، فكانوا قوم اتصفوا بالجفاء الإنساني والخواء الديني والجمود، فرغم إنهم أصحاب ديانة سماوية ألا إن الديانات الوثنية السابقة عليهم كالديانة المصرية القديمة والكنفوشوسية والهندوسية والزرادشتية وما بعدهم المسيحية والإسلام دعت لتخلق بمكارم الأخلاق وتنشئة الأبناء على حب الغير وفعل الخيرات.

ثانيا :– القيم الأخلاقية في الحضارة المسيحية :–

تعد المسيحية ثاني الأديان السماوية التي كان معيارها جميعا هي الأخلاق،فشرائع كل ديانة تقوم على عدة قيم إذا التزم بها المؤمن سلك إلى طريق المغفرة والسعادة الأبدية، فمع

بداية المسيحية وانتشارها بدأت حقبة العصور الوسطى عصور الظلام لانتشار الفتن بها وانقسام الناس إلى فرق متضادة من اجل المصالح الشخصية والخلافات السياسية كالكنيسة الشرقية والغربية والاختلاف حول القضية الناسوتية واللاهوتية، فلم تكن الطبيعة من المؤثرات الهامة في المجتمع المسيحي وهذا لتشعبهم بين الكثير من البلاد شرقا وغربا بل كان المؤثر القوي هو الخلاف السياسي والتحارب على السلطة الدينية فالدين كان المتحكم الأول والأخير في كل مجالات العصور الوسطي.

ظهر المسيح في ظل مجتمع فوضوي مفتقد للانتماء الروحي لأي ديانة وهذا لتلاعب الكهنة والملوك بالدين لصالحهم فدعا المسيح في تعاليمه التي رفضها اليهود رغم تأكيده على إنه مكملا للناموس لا ناقضا له وكل ما أراده هو تصحيح كثرة الأخطاء بالكتاب المقدس، فأكد على أهمية طاعة الله والالتزام بتعاليمه وإتباع القيم (المساواة- الحب- الرحمة- التسامح- التعاون- الطاعة- العدل- الإحسان... الخ) ليتخلص الناس من خطاياهم وآلامهم ويصلوا للسعادة الأخروية، فاعتني المسيح بالأخلاق لاعتبارها العنصر الأساسي للاستقامة ودعا إلى الزهد التام في الدنيا والتسامح مع الناس فقال " يعوذك شئ واحد، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء، فيكون لك كنزا في السماء"، وأيضا " ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله، مرور جمل من ثقب ابره أيسر من دخول غني إلى ملكوت الله".(8)

تأخر انتشار المسيحية لفترة بسبب تعارض تعاليمها مع الديانات الوثنية في ذلك الوقت، كما أن المسيحيين الأوائل رفضوا الخضوع إلي الحكومات الوثنية مما جعلهم يتعرضون للاضطهاد واشتهر عهد "دقلديانوس" بعصر الشهداء لكثرة القتلى به، واستمر هذا الاضطهاد حتى أعلن "قسطنطين" المسيحية ديانة رسمية للدولة، وبدأ عهد جديد هو العصر الوسيط الذي انتشر به سلطة البابوية المسيطرة على الدولة والدين فظهر أسقف روما صاحب السلطة العليا بكل الكنائس، وأصبحت الدولة تابعة للدين لا العكس مما زاد من نفوذ البابوات والقساوسة وظهرت قيم (الافتراء- الطمع- المحاباة- الاعتراض- الكره- التملق- ....الخ)،فالمسيحيون الأوائل آمنوا بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع وتطلعوا بآمالهم إلى يوم القيامة ،فقل بطبيعة الحال اهتمامهم بهموم الحياة الدنيوية وتعلقوا بالمملكة المقدسة مملكة الله ورفضوا المملكة الأرضية الوثنية القائمة على ويلات الحروب ومعاناة البشر،فكان ضميرهم يدفعهم للتخلق بفضائل الأخلاق، وهذا عكس المسحيين ذوات السلطة العليا بالبلاد عندما اجتمعت معهم القوة والسلطة والمال وزادت الخلافات بين الفرق المسيحية بالشرق والغرب حول القضايا اللاهوتية والسلطة استعانوا بالحروب المقدسة بحجة الدفاع عن الدين وهي تخفي أطماعهم المادية.(9)

ولقد رأينا مثل هذا الوضع في تغير الديانات القديمة والمبادئ الأخلاقية بمجرد سيطرة القوة والطمع على الإنسان ، فبعد أن انقضت القرون الأولي من العصر المسيحي عانت الأخلاق المسيحية حيث تجمد الحق المسيحي في شكل قائمة من الفرائض الدينية وأصبح يوجد فرق بين

التعليم الأخلاقي والتعليم العقائدي واهتموا أكثر بالطقوس الدينية وتقويمها أكثر من الأخلاق فاخذوا عن أهل فارس والهند سلطة التعميد التي يخضع لها كل فرد حتى يكون مسيحيا وعقيدة " الأفخارستا" من الديانة الزرادشتية التي يتحول فيها الخبز والخمر إلى دم المسيح والتبرك به، وأيضا طقس الرهبنة من الزرادشتية.

خضعت الدولة المسيحية في العصور الوسطى بكل مجالاتها للدين مما فرض قيود على العلم والفن، حيث رفض كل ما يتعارض مع النصوص المقدسة أو يشكك بتعاليمها، وهذا جعل الفلاسفة والعلماء يلجئون إلى الفرس لحرية الفكر لديهم، فافتقار روما إلى العلم والبحث جعلها تتبني المدارس الفلسفية في أثينا خاصة المذهب الرواقي الذي مهد روما لاستقبال المسيحية وأيضا استخدامها الفلاسفة للدفاع عن المسيحية ضد الهراطقة والملحدة.(10) ورغم ظهور المسيحية وانتشارها ألا إن الفكر اليوناني والنظريات العقلية دعمت الوثنية وحافظت على بقائها، حيث إن الحركات الفلسفية وضعت نظريات في قضايا خلق العالم وأشبعت التساؤل العقلي حول الأحداث الكونية والتغيرات البشرية.

قامت النظريات الأخلاقية في المسيحية على مبدأ أن الذي يستطيع إرضاء الله هو وحده الذي يعرف كيف ينظم حياته، حيث وجد فرق بين فلاسفة العهد الوثني الروماني ورجال الفلسفة المسيحية، ففلاسفة الرومان عند تفكيرهم في الدين لا يتخذون منه مبدأ يقيمون عليه صروحهم الأخلاقية بل تحاشوا ذلك وبنوا آرائهم على العقل والتجربة، في حين أن رجال الفلسفة المسيحية رأوا أن عالمنا قد يتجلي فيه الإله ليعرف الإنسان الحقيقة وهذا بالوحي الذي أنزل على موسي وعيسي ،فالإنسان لا علاقة له باكتشاف القواعد الأخلاقية بل كل ما عليه هو الاتجاه إلى النصوص المقدسة والالتزام بها ،فالفضيلة هو فعل خيريه الشرائع والبعد عن نواهيها.(11)

تحتل الأخلاق المرتبة الأولي في الديانة المسيحية لان المسيحية ذاتها تم تأسيسها على الأخلاق الدينية ،واختلفت الآراء حول هذا الموضوع ولم يكن القديس أنسلم (1033- 1109م) بعيدا عن تلك المساجلات التي دارت حول موضوع الأخلاق فهو يتناول الأخلاق من مفهومين للخطيئة خطيئة طبيعية وهي مجبولة في الطبيعة البشرية والخطيئة الشخصية التي تستمد من الشخص نفسه ويفعلها بمحض إرادته،(12) ورأي أن الشر عدم فطالما أن الانحراف هو غياب

الاستقامة فإن الشر كذلك هو غياب الخير، والوجود لا يمكن أن يكون شرا فإن معني هذا افتقاده للخير الذي ينبغي أن يكون متواجد فيه والأشياء الضارة في نظره تسمي شرورا ، فقال "هذا ليس لأن الانحراف شئ حاضر في أو موجود أو يقوم بعمل شئ ولكن لأن الإرادة هنا ينقصها الاستقامة، فتنقاد بواسطة العديد من الشهوات والغرائز، فتصبح متقلبة ومتطرفة و تفقد التحكم في نفسها وتصبح خالية من أي قيد، فتغرق نفسها وكل شئ تحت سيطرتها وقيادتها في شرور لا حصر لها وما كان سيمنع ذلك من الحدوث هو الاستقامة إن وجدت". (13)

يتراءى لي بأن المسيحية دين روحي سماوي جاء به المسيح من عند الله ولكن الكهنة بكل زمان احتكروا الأسرار لأنفسهم واخذوا يؤولونها على أهوائهم، فكانوا يعرفون الحق ويحيدون عنه، وأباحوا الرموز للشعب فالمسيحية لم تقضي على الوثنية بل تبنتها، واقتصر التعليم لديهم على الكتاب المقدس لهدفهم في إعداد رجال دين لا علم، فلم تتحرر عقول العصور الوسطى من عبودية الوثنية وخرافاتها.

ثالثا :- القيم الأخلاقية في الحضارة الاسلامية:-

تمثل الأخلاق والتحلي بقيمها الجانب المعنوي أو الروحي في الحضارة الإسلامية ، فالإسلام يعد أخر الأديان السماوية التي جاءت لتكمل أخلاق البشر وتضع لهم القواعد الحياتية في السلوك، رسخت القيم الأخلاقية عبر التاريخ الإسلامي من (الصدق- الأمانة- الوفاء- العدل- الإحسان والرحمة- الحياء.... الخ) فلقد عدها الإسلام مجسدة للإيمان ومن خصال المؤمنين وعد الرذائل من خصال المنافقين، فمع التوسع الإسلامي تغيرت القيم النبيلة إلى قيم (الطمع -التملق- الظلم- السرقة- الخ) للتحارب على السلطة والتزعم الديني، مما اظهر الكثير من الفرق الضالة كاليزيدية والسبئية والميمونية وغيرهم من مغيري تعاليم الإسلام إلى أفكار وثنية شعبت الديانة الإسلامية إلى أحزاب متحاربة كالمسيحية تملقت بالدين وأضعفت الإسلام.

من أهم ركائز الدين الإسلامي هي قيم الإلزام والالتزام التي حرص عليها الرسول وخلفائه للحفاظ على الدعوة الإسلامية، فقامت تعاليم الإسلام على الطاعة والعبادة لله لنيل الجنة، سنجد أن الخلفاء استخدموا سياسة الشدة لرد الفرق المتطرفة في حين أن البعض استخدم اللين مما أدي لظهور الفتن والطمع والعنف والصراعات وغيرها، وهذا ما سنعرضه في إيجاز كالتالي قبل وفاة الرسول (ص) تزايد عدد معتنقي الإسلام منهم المجوس والفرس واليهود الذين دخلوا الإسلام تخلصا من دفع الجزية ، وكان لديهم ثناية في الديانة ما بين ديانتهم القديمة واعتناق الإسلام وظهرت

الكثير من الفتن التي حاول الخلفاء بالأخذ على عاتقهم تحرير الإسلام من هذه الفتن كقيام "أبو بكر الصديق" بمهاجمة الردة لامتناعهم عن الزكاة فقتلهم وغيره.(14)

تميز العرب عن الشعوب القديمة باستخدامهم الشعر في وصف فضائلهم وقيمهم للاعتبار والموعظة في عدة صور منها الأمثال والحكم التي تحث على سلوك معين أو النهي عن سلوك أخر، يقول الجاحظ "كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع".(15) ولكن عان المجتمع العربي قبل الإسلام من نظام الطبقية التي يعلوها الأشراف ويدونها الفقراء والعبيد،ووجدت صراعات قبلية بينهم كحروب البسوس التي استمرت 40 عام حيث وقع عليهم كل ألوان العذاب والظلم والاستغلال في الخدمة، فظهرت قيم المادية والطمع والنفعية لدي العرب في ديانتهم، فلقد تأثروا بالديانات القديمة في تعدد الآلهة وأوجدوا ثالوث إلهي يقدم له القرابين لنيل رضاه وزيادة الخيرات والأعمار،فانتشر التعالي على الآلهة إذا لم تحقق لهم مطالبهم،.

حتى جاء القرآن منهج حياة ومرن في تعاليمه المتوافقة مع أي زمان وأي ظروف ونجح في توحيد الأجناس البشرية المتعارضة وألف بين قلوبهم ، كما رفع من المستوى الأخلاقي للشعوب والثقافي وحررهم من عبودية الأوثان والخرافات ووضع لهم منهج اجتماعي وديني وسياسي واقتصادي جعلهم منشئين حضارة لم يوجد لها مثيل،كما بعث في النفوس الكرامة وجعل المسلمين على درجة من الاعتدال في إشباع الشهوات فالإسلام نجح فيما عجزت على فعله الديانات السابقة وهى توحيد الشعوب واستقرارها.(16)

ظلت الفكرة القديمة من المجتمعات الوثنية والنظرة اليهودية والمسيحية للمرأة مسيطرة على عرب الجاهلية، حيث إنهم حقروا من مكانة المرأة فانتشرت عادة وأد البنات لاعتبرهن نذير شؤم وعار على القبيلة لاعتمادهم على الذكور في الحروب والصيد، وهذا ما نهى عنه الإسلام خاصة قتل الأولاد خوفه إملاق، فالإسلام حرر المرأة وكرمها فلم تنعم بهذه الحرية منذ الحضارات القديمة لاعتبارها مصدر الشرور ولكن القران أكرمها واعتبرها جوهرة مصونة لا يهينها إلا لئيم. (17)

كما فرضت الظروف الاجتماعية على العرب في الجاهلية أنواع من الزواج نشرت الزنا والفواحش منها زواج "الرهط" وهو شبيه بالشيوعية الجنسية لدى البدائيين ولكنه حكم بقوانين ، فعادة العرب في وأد بناتهن قلل عدد النساء لديهم لهذا كان جماعة من الأخوة يتزوجون من امرأة واحدة وجميعهم متساوون في الحقوق الزوجية، وإذا حدث حملا كانت هي من تحدد الأبوة الرسمية للمولود، كما وجد زواج "الاستبضاع" وهو أن الرجل إذا أراد أن يأتي له ولدا يجعل زوجته تعاشر

رجلا ولادته كلها ذكورا ولا يلمسها حتى يتأكد من حملها وهذا النوع من الزواج استغلت فيه الإماء والسبايا، كما وجد الجمع بين الأختين وغيرها من العادات التي جاء الإسلام وحرمها وهذا لخلط الأنساب وانتشار الزنا والفواحش وقطع الأرحام، فالإسلام حرر العرب من الرجس والفجور.(18) فكان النبي محمد (ص) حسن الخلق حاول تخليص قبائل العرب من شرور أعمالهم بنشر فروض الشريعة الإسلامية بنبذ الزنا ووأد البنات وتحريم الغش في الميزان والدعوة لإقامة العدل والإحسان إلى الفقراء والبر بالوالدين قال تعالي "(يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان)(هود:84).

ظهرت قيم التملق والمغالاة والحقد والحرب والاستغلال لدي الفرق المتطرفة في الإسلام التي لم تخلص في إسلامها بل أرادت إثارة الفتن وجذب طاعة الناس لهم حتى ولو على الضلال، " قامت بعض فرق الخوارج بالمغالاة في الدين فكانت السبب بلا شك في اتهامها هي نفسها بالخروج عن الإسلام، وكان من بينها فرقتان بارزتان هما اليزيدية أتباع "يزيد بن أبيه" الذي زعم أن الله سيرسل رسولا من العجم وينزل عليه كتابا ينسخ القرآن، والميمونة أتباع "ميمون العجردي" الذي أباح الاتصال ببنات الابن وبنات الأخ، كما أنكر سورة يوسف ولم يعدها من القران، كما ظهر "ابن سبأ" يهودي الأصل وقال إن عليا وصي محمد وإنه خاتم الأوصياء وتأثر بمبدأ الوصاية لدى اليهود، كما أكد بأنه يستمد الحكم من الله وهنا استمد فكرة الحق الإلهي من الفرس بأن "على" خليفة الرسول، كما انه عند موت "على" قالوا السبئية بأنه سيرجع مرة أخرى وإنه هو المهدي المنتظر فقال ابن سبأ (لو أتيتموني برأسه سبعين مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى ينزل من السماء ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا)".(19)

كما اعتقد السبئية في عقيدة تناسخ الأرواح لدى الهندوسية وزعموا بأن "على" دبت روحه في أجساد أولاده، وأيضا الشيعة تفرقوا لشعب لكلا منها تعاليمها كالأثنى عشر الذين قالوا بأثني عشر إماما بعد "على" أخرهم "محمد المهدي" وان المهدي جاء بشريعة أفضل من محمد (ص)، وأيضا عام 1092م بعهد الدولة العباسية ظهرت فرقة الحشاشين بقيادة "الحسن بن الصباح" الذي أنشا بحصن ألمقت بإيران جنة بها خيرات من النساء والطعام، فكان أتباعه يسقون الحشيش إلى الشباب ويدخلوهم هذه الجنة للتمتع بها ثم إخراجهم وعند سؤالهم عنها يطالبوا بالانضمام إلى الجماعة والطاعة التامة إلى الحاكم،(20) فانتشرت الفتن والاغتيالات تحت راية الإسلام ومازالوا موجودين حتى الآن، فتتابع العصور الإسلامية من العباسية ثم الأيوبية ثم المملوكية ثم عصر النهضة ودولة "محمد على" ثم الخلافة العثمانية وسقوطها على يد الغرب، أنهت الدولة الإسلامية وحضارتها وبدأت حضارة الغرب والعصر الحديث فرضوا فيه سيطرتهم على دول العالم ،فلقد حرفوا

تعاليم الإسلام على أهوائهم ولكن جاء القرآن كاملا وواضحا لا يقبل الشك كما حدث في التوراة والإنجيل.

وجدت نوابغ فكرية لدي المسلمين حيث عاصر مسكويه (320- 421هـ \ 932-1030م) عهد النهضة بالإسلام عهد دولة البويهيين عاش تطورها وانحدارها، فكان الخلفاء والأمراء يتفاخرون باجتذاب العلماء والأدباء إلى بلاطهم مما اظهر نوابغ في الفكر والسياسة والأدب والعلم، ولكن كان القرنين الثالث والرابع الهجريان مليئان بالاضطرابات والنزعات السياسية وتفاقم المشاكل والمعارضات الاجتماعية والأزمات الأخلاقية، لهذا عزم مسكويه على تقديم فلسفة أخلاقية وسياسية واجتماعية يقوم عليها المجتمع الإسلامي وينقذه من الانحطاط والضلال وسعي لإقامة مجتمع سعيد يحقق لأفراده الفضيلة والسعادة، فملئت فلسفته الأخلاقية بجوانب عقلية بالقدر الذي تبع فيه أرسطو، (21) فكان هدفه هو تحقيق حياة خلقية لفرد سعيد فرأى أن الفضيلة ليست طبيعية بل مكتسبة بتعلم أصول المعارف والمعاملات الشرعية حتى لا تضعف قوة التميز والعقل وطلب الفضيلة وبلوغ السعادة، كما اشترط حرية الإرادة والاختيار لتكون أفعال الإنسان خيرة وفاضلة. (22)

يراءي لي أن الأخلاق متغيرة من وقت لأخر حسب أحداث المجتمعات وتماشيا مع أهوائهم وهذا ما وجدناه عبر العصور، فكل حاكم أو كاهن أو فرقة أرادت السيطرة على الشعوب تلاعبت في العادات والقيم تبعا لها وأضافت مسحة مقدسة عليها ليتبعهم قومهم،هذه الأفكار المتطرفة ظهرت في كل الخلافات الإسلامية لانشغالهم بالتوسع بالرقعة الإسلامية والتمتع بالملذات وضعف المسلمين حتى سقطت حضاراتهم بالنهاية، ورغم هذه الفرق المتطرفة ألا إن الإسلام حافظ على تعاليمه فقد كانت اليهودية موغلة في المادية وجاءت المسيحية مسرفة في الروحانية أما الإسلام فجاء وسطا بين الأمرين.

أهم المصادر والمراجع :-

- أبي على احمد بن محمد بن يعقوب (مسكويه)، "تهذيب الأخلاق"، تحقيق\ عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2011م.

- إيتن جلسون، "روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط"، ت\ إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.

- جلال شمس الدين، *"الفضائل والقيم لدى الشعوب القديمة ذوات الأديان السماوية"*، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط2، 2006م.

- حسين الشيخ،*"العرب قبل الإسلام"*، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م.

- شارل سنيوبوس،*"تاريخ حضارات العالم"*، ت\ محمد كرد على، الدار العالمية للكتب والنشر، الجيزة،ط1، 2012م.

- شارل جنيبير، *"المسيحية نشأتها وتطورها"*، ت\ عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت، (د- ت).

- عباس العقاد، *"الصهيونية العالمية"*، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ج14، (د- ت) .

- عبد الحكيم الكعبي، *"موسوعة التاريخ الإسلامي، عصر ما قبل النبوة "*، دار أسامة، الأردن، 2009م.

- عبد الرحمن بدوي، "فلسفة العصور الوسطي"، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ط3، 1979م.

- عبد الوهاب المسيري، *"موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"*، دار الشروق، القاهرة ج1، م2، ط1، 2003م.

- هنري بيرين، *"تاريخ أوروبا في العصور الوسطى"*، ت\ عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م.

- ول وايريل ديورانت، *"قصة الحضارة، عصر الإيمان"*، م4، ج 1و2، ت\ محمد بدران ، دار الجيل، بيروت ،(د- ت).

- ول ديورانت، *"قصة الفلسفة"*، ت\فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988م.